ارتياب الكتابة بين حتمية المنفى وسردية الانتماء
إدوارد سعيد في (خارج المكان)

الدكتور : فيصل حصيد
الأستاذ: عبد القادر نويوة
كلية الآداب واللغات
جامعة عباس لغرور خنشلة- الجزائر

ملخـــص:

تطرح قضية الكتابة والمنفى في أعمال إدوارد سعيد ثنائية ضدية لكنها منسجمة هي ثنائية الضرورة والحرية، كما أنها تؤسس لتشكلات هووية أساسها الفضاء العمومي المتعلق بالانتقال، مع ما يحمله من خصوصيات على مستوى الهوية والمرجعية وضبابية الأفق. إن إدوارد سعيد المجبر على المنفى يتداوى بسردية للانتماء شكّلتها معظم أعماله، وهو ما نسعى لاستكشافه في سيرته الذاتية التي حملت عنوانا إشكاليا قلقا هو " خارج المكان".

Résumé :

la question de l'écriture et de l'exil dans l'œuvre de Edward Saïd a soulevé la présence d'une paire contradictoire mais cohérente . l'obligation et la liberté.

Cet auteur s'intéresse aux formations identitaires déterminées par l'espace publique , le déplacement et tout ce qui s'y rattache : l'identité , la référence , et l'opacité de l'horizon.

Pour faire face à l'exil imposé , Saïd a adopté dans la majorité de ses travaux , le récit d'appartenance .

C'est ce que nous allons tenter d'explorer à travers l'étude de son récit autobiographique intitulé « Kharej El- makan ».

إنّ الحديث عن إدوارد سعيد متشعب تشعب القضايا التي أخذت قسطا وافرا من كتاباته وأبحاثه، و التي لا تزال إلى اليوم - وبعد انقضاء عشر سنوات من رحيل الرجل- أرضية خصبة للبحث والدرس والتمحيص، والتي لا يستطيع جمع تلابيبها وتتبع عمق مساراتها وإشكالاتها إلا باحث حصيف مع كثير من الروية والتدقيق. لا لشيء إلا لأن كتاباته فذة واستثنائية واستفزازية في كثير من أطروحاتها الإشكالية. فهو باحث مدقق ومفكر عميق ومؤرخ أكاديمي، وناقد فريد. لذلك استطاع أن يضع لنفسه مكانة على الساحة الثقافية العالمية، وأصبح اسمه علما من أعلام الفكر العالمي.

وعليه فإنه لمن نافلة القول أن نعمد إلى تقديم تعريف عن الكاتب إدوارد سعيد، فهو من الأسماء اللامعة والمعلومة من الثقافة بالضرورة, لكن من المفارقات العجيبة ربما أنه لا يذكر اسم إدوارد سعيد إلا وذكر المنفى،ليس لكون هذا الأخير (أي المنفى) أضحى من الثيمات اللازمة في كتاباته، وليس أيضا لكونه يسكن المنفى ويعالج فيه ألم الفرقة والبعد. ولكن المنفى هو الذي يسكن إدوارد سعيد، ويؤكد هذه الحقيقة بقوله: "يجبر المنفى المرء على التفكير فيه ويا لها من تجربة فظيعة. إنه الشرخ المفروض الذي لا التئام له بين كائن بشري ومكانه الأصلي، بين الذات وموطنها الحقيقي: فلا يمكن البتة التغلب على ما يولده من شجن أساسي" [1].

وانطلاقا من فكرة المنفى وما لها من علائق بموضوعة المأساة، ارتأينا أن ينصب موضوع مقالنا حول حتمية هذا المنفى عند إدوارد سعيد في كتاباته مع تخصيص موضوعة السرد في كتابه (خارج المكان) المنضوي تحت جنس (السير الذاتية) خصوصا، أو ما يصطلح عليه بأدب الاعتراف عموما. فهذا الكتاب (خارج المكان) يشكل محورا لسرد الأنا لذاتها بدافع مأساة المنفى المطوق لها شكلا ومضمونا كحتمية مفروضة، مع تأكيد صريح لأصل الانتماء العربي الفلسطيني. وهذا ما سنحاول استجلاءه، ولتكن البداية من العنوان.

1- العنوان ومفارقات الدلالة:

إن حقيقة المنفى بوصفها فكرة وكحقيقة واقعية لا تكاد تغادر كتابات إدوارد سعيد، فهي تشكل أهم محور تنبني عليه خطابات الكتابة عنده، فأصبح لا يكاد يذكر اسم إدوارد سعيد إلا وذكر المنفى. وهذا بالتأكيد ما يتبادر إلى الذهن عند قراءة عنوان سيرته الذاتية (خارج المكان)، فكون الأنا أو الذات المعبر عنها بصفتها في حيز الخروج عن المكان، ما هي في الحقيقة إلا محصلة لمعنى واضح لفكرة المنفى بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان.

لقد جاءت معالجة إدوارد سعيد لقضية المنفى، ليس على سبيل التحقيق والانجاز الكتابي فقط، بل تتعداه إلى البعد الدلالي، فعنوان سيرته (خارج المكان) نجد فيه ما يتوافق ومعنى المنفى، لأن الابتعاد عن المكان لا يكون بالخروج،إنما بفعل الإخراج المفضي إلى معنى إرادة الاقتلاع. والإخراج هنا إخراجان، إما أن يكون قهريا وإما أن يكون اختياريا. فالأول لا سلطة للذات فيه، أما الثاني فالخيار فيه متاح. لكن الاشتراك بينهما حاصل فكلاهما يؤسس لمعنى البعد والمنفى والشتات والضياع، إذ إن المنفى " رحيل في الجغرافيا والزمن وذاكرة الذات والمحيط، وعيش على إيقاع الخوف والفقدان، ومجاوزة للظاهر الذي ألفته العين، واستوطن خلايا الذهن، إلى البعيد الغامض الموحش"[2].

إن ما يؤسس للبعد الدلالي لعنوان الكاتب (خارج المكان)، هو التأكيد الضمني الملح على أن إدوارد سعيد (داخل المكان)، فالخروج عن المكان هنا والبعد عنه ما هو في حقيقة أمره إلا خروجا انطولوجيا فيزيقيا بكل محدداته، أما الحضور فيه فهو حضور سيكولوجي مرسخ لفكرة الانتماء رغم الإبعاد، والتي ما فتئ ادوارد سعيد يؤكدها في جل كتاباته حيث يقول: " يشيع افتراض غريب وعار عن الصحة تماما، بأن المنفي قد انقطعت صلته كلية، بموطنه الأصلي، فهو معزول عنه، منفصل منبت الروابط إلى الأبد به... ولكن الواقع يقول بغير ذلك، إذ لا تقتصر الصعوبة التي يعيشها المنفي على كونه قد أرغم على العيش خارج وطنه، بل إنها تعني ...أن يعيش مع كل ما يذكره بأنه منفي"[3].

فعلى الرغم من أنه خارج المكان، إلا أن مضمون سرده في هذا الكتاب هو الكتابة عن هذا المكان والرجوع بالذاكرة إليه. فالكتابة عنه هي بمثابة " سجل لعالم مفقود ومنسي ...

والعديد من الأمكنة والأشخاص التي أستذكرها هنا لم تعد موجودة، على الرغم من أني أندهش باستمرار لاكتشافي إلى أي مدى استبطنها، وغالبا بأدق تفاصيلها بل بتشخيصاتها المروعة " [4].

فبالكتابة بوصفها وسيلة بديلة يعمد سعيد إلى استرداد المفقود واستذكار المنسي، وذلك تمثيلا منه وتجسيدا لمقولة أدورنو "الانسان الذي لم يعد له وطن، يتخذ من الكتابة وطنا يقيم فيه "[5]. فالكتابة عنده رحلة استرجاعية في الزمان لاسترداد ما تم فقده، وتأكيد الانتماء إليه رغم البعد الاستذكاري في رحلة الزمان، ورغم البعد الجغرافي عن المكان المفقود الذي لم يبق كما كان بفعل بُعد شقة الغياب والهجران.

هذا إضافة إلى أن إدوارد سعيد خارج عن المكان، فإنه من جهة أخرى تأكيد منه للحضور في الزمان، فالخروج عن المكان مع الحضور يؤسس لمعنى فكرة المنفى وتأكيد الانتماء، أما الخروج من الزمان على الرغم من الحضور في المكان فما هو إلا الموت والفناء.

2- بين مأساة الكتابة وكتابة المأساة :

إن الكتابة في عمومها وعلى اختلاف توجهاتها المعرفية، والكتابة الأدبية على وجه أخص تعتبر جزءا من طبيعة النص الإبداعية، وذلك بفعل تحكمها في تأسيس منظومتها الرمزية والإيحائية الخاصة، المميزة والمختارة من بين ممكنات تعبيرية كثيرة، وهذا ما يفتح طريقا جديدا في التعامل مع دلالاتها الخطابية من خلال فعل التأويل.

والكتابة كما هو معلوم تتقاسمها دوما رغبتان: رغبة الكتابة، ورغبة الإحجام عن الكتابة، لا لشيء إلا لأن الكتابة معاناة ومأساة، ليس بعد الانتهاء منها فقط بل أثناءها وحتى قبلها. نعم تغدو الكتابة في أحايين كثيرة مأساة ومعاناة منذ التفكير فيها والتصريح بعزم مباشرتها، وربما تستمر حتى بعد الانتهاء منها. هذه القضية بالضبط هي التي تسربل بها كتاب (خارج المكان) لإدوارد سعيد، فخط سطور هذا الكتاب في كل ملابساته يشكل مأساة، قبل صدوره، وأثناء تحريره وبعد صدوره. وهذا ما نطمح إلى توضيحه والوقوف عند تجلياته، وسيكون بدءا بمأساة كتابته، ثم بعد ذلك عن مضمونه وكتابة المأساة فيه.

إن مأساة الكتابة (لخارج المكان) كانت قبل صدوره، وذلك بمبادرة فعل التشكيك حول سيرة إدوارد سعيد، حيث انبرى باحث اسمه جيستس رايد فاينر، بنشر مقال يتحدث عن سيرة إدوارد سعيد ويؤكد على عدم عزو أصوله إلى القدس، كما أن صفة النفي أو اللجوء لا تليق به، لكن أخطاء كبيرة وجسيمة شابت مباحث هذه الدراسة وتلقت ردودا كثيرة، كان من ضمنها رد إدوارد سعيد نفسه.

نعم إن الكتابة مأساة كما حددنا سلفا، فهي "تولد من رحم الصراع مع الحياة والموت، وتتموضع في الحد بين الضرورة والحرية"[6]. وهي تصل في مجال سياقات التلقي إلى درجة وصف الكاتب وحاله بحال شهرزاد، وحال المتلقي ووضعه بحال شهريار. لكن أن تصل أزمة الكتابة والممثلة عندنا هنا في كتاب (خارج المكان)، أقول أن تصل إلى درجة النقض والتجني حتى قبل الكتابة، فإنها بحق إحدى المفارقات المأساوية التراجيدية المكتوبة على إدوارد سعيد، حيث إن "جستس رايد فاينر بدأ عمله في التحري عن حياة إدوارد سعيد عام 1996 أي بعد أن أعلن سعيد عزمه على كتابة مذكراته ... كما أن فاينر قام بتوقيت نشر مقالته في كومنتري في الشهر نفسه الذي ستصدر فيه المذكرات ... لقد رغب فاينر، ومن مول عمله <البحثي>، أن يشكك في مصداقية إدوارد سعيد وتلويث سمعته الشخصية والمعرفية لكي يصبح من السهل التشكيك في الرواية الفلسطينية كلها، فإذا كان إدوارد سعيد، المثقف الذي يتمتع شخصه وعمله بصدقية عالية في المؤسسات الأكاديمية ووسائل الإعلام الغربية، كاذبا فماذا نقول عن مئات آلاف الفلاحين الذين يدعون أنهم طردوا من فلسطين عام 1948 "[7].

ما يهمنا من خلال طرح هذه القضية، هو تلك الرغبة الملحة لإدوارد سعيد في تسجيل مذكرات حياته، فالكتابة عنها أضحت بالنسبة إليه ضرورة وحتمية، وأرادها كتتويج لمساره المعرفي، إذ ليس الغرض منها سرد تجارب حياتية مريرة، وإن كانت لا تخلوا من ذلك. بل الغرض الأساس والموضوع المهيمن هو الذي يتجلى في سردية الإنتماء ولا مجال لتأكيده إلا بحتمية الكتابة، فقد "أمضى سعيد الشطر الأكبر من حياته منفيا ومبعدا عن وطنه. فقد عاش لاجئا في مصر بعد أن احتلت فلسطين عام 1948، ليهاجر بعد ذلك إلى

الولايات المتحدة الأمريكية. مما طور لديه شعورا عميقا بالانتماء إلى ثقافة مقتلعة ... فقد عرف سعيد كيف يغالب العوائق والاحتجاجات، وكيف يكتب في مناخ يسوده الإجحاف والظلم. ويتقصى سعيد في مذكراته المتأخرة (خارج المكان)، موقفه المزدوج والمتناقض بشعور متنام حقيقة كونه خارجيا، فهو فلسطيني مسيحي يقيم في أمريكا، ويحمل اسما انجليزيا موصولا بآخر عربي "[8].

إن حتمية الكتابة في سردية الانتماء، هي السبيل الأمثل لدحض ادعاءات الباطل والتشكيك في الانتماء للمكان، الذي هو حق مشروع يؤسسه ويؤكده فعل الكتابة ورغبة السرد في صورة أقل ما يقال عنها أنها تراجيدية محكومة بضغط النفي ومأساة المنفى، في مواجهة محاولات التشكيك الصهيونية "من خلال أداتها الفكرية أن تنفي انتماء سعيد المكاني لكونه رمزا فلسطينياً، وبدحض قصته يصبح كل الحق التاريخي الفلسطيني في المكان مجرد ادعاءات باطلة "[9].

3 - دوافع سرد الأنا في المأساة:

لقد جاء كتاب (خارج المكان) مأساة في سياق جارف من المآسي، وإذا ما كان صحيحا كما يقول إدوارد سعيد "أن الأدب والتاريخ يحفلان بحوادث بطولية، ورومانسية، ومجيدة، بل وظافرة حدثت في حياة النفي، إلا أن هذه الحوادث لا تعدو أن تكون جهودا يقصد منها التغلب على أسى الغربة الشامل، فمآثر المنفى لا يني يقوضها فقدان شيء ما خلفه المرء وراءه إلى الأبد "[10].

في هذا السياق بالذات يأتي كتاب (خارج المكان) في سرد الأنا في مصير المنفى، ليس بوصفه مبعدا فقط، لكن بوصفه أيضا منبوذا اجتماعيا وأخلاقيا، وتزيد حدة هذا الشعور عندما يكون هذا المنفي مثقفا كحال إدوارد سعيد.

إن المثقف والحال هذه، لا يجد من سبيل غير الكتابة ملاذا تطمئن له نفسه وتركن إليه أحاسيسه. لقد تشابكت دوافع كتابة هذه السيرة، أو بالأحرى تضافرت المآسي لتأصيل فكرة الكتابة، وأولى هذه المآسي التي تنضاف إلى مأساة ما قبل الكتابة التي أوردناها آنفا، هي مأساة المرض، فقد جاء وصف هذه الحال في الكتاب على لسان صاحبه في مقدمته

على أنه "سجل لعالم مفقود أو منسي، منذ عدة سنوات، تلقيت تشخيصا طبيا بدا مبرما، فشعرت بأهمية أن أخلف سيرة ذاتية عن حياتي في العالم العربي، حيث ولدت وأمضيت سنواتي التكوينية ... على الرغم من أني أندهش باستمرار لاكتشافي إلى أي مدى استبطنها، وغالبا بأدق تفاصيلها بل بتشخيصاتها المروعة "[11].

نعم إنه عالم مفقود ومنسي، لكن ما الدافع إلى الاستذكار والغوص في أغوار هذا العالم الذي أصبح في منأى عن الحس والبصر؟. إن لموضوعة الموت أهمية قصوى في تعداد لحظات الزمن المفقود، فهي (أي موضوعة الموت) الدافع الأصيل لعملية الاستجماع والاستذكار والاسترجاع لما كان مرجوا لكنه مفقودا، فهي استثمار للحظات الباقية في استرداد ذكريات أشخاص وأماكن وأحداث تشكلت عبر الزمن الغابر على تضاريس جغرافية الارتحال و اللااستقرار.

واستنادا إلى هذا الوصف، فإنه يمكن اعتبار هذا الكتاب على الرغم من مجمل الملابسات التراجيدية التي تحكمه شكلا ومضمونا، عملا إيجابيا مبدعا إذ " تتمثل إحدى هذه الايجابيات، بطبيعة الحال، في المتعة التي نجدها في الدهشة، وفي عدم التسليم بشيء، وفي أن تتعلم كيف تتصرف تصرفا معقولا في الظروف القلقلة والبلبلة التي قد تربك أو تفزع الآخرين. فالمدار الأساسي لحياة المثقف يتمثل في المعرفة والحرية، ولكن هاتين لا تكتسبان معناهما باعتبارهما من التجريديات على نمو ما نرى في المقولة المبتذلة إلى حد ما (لابد أن تحصل على تعليم راق حتى تعيش مرفها)، بل باعتبارهما خبرات فعلية يمر بها الإنسان في حياته"[12].

إن طائلة الموت بوصفه هاجسا أحكم قبضته على فعل الكتابة، زاد في تعميق فجوة الشعور بالغربة والنفي المزدوج، فبالإضافة إلى سطوة الإبعاد والخروج عن المكان، فإن الخروج عن الزمان أضحت مدته في تقلص دائم تعزفه سنفونية دقات الساعة الرهيبة، حتى أصبح النوم لا رغبة فيه عند إدوارد سعيد "ذلك أن النوم عندي أمر يجب الانتهاء منه بأسرع ما يمكن، فأنا لا أستطيع الإيواء إلى الفراش إلا متأخرا جدا لكني أستيقظ عند الفجر ... فالنوم عندي معادل للموت ... إن الأرق عندي حالة مباركة أرغب إليها بأي ثمن

تقريبا"[13].

إن كتابة مذكرات (خارج المكان)، يمكن اعتبارها والحال النفسية هذه لحظة من أسمى لحظات التطهير والتنفيس، وهي ثمرة من ثمرات المعاناة، التي تم اجتناؤها من بستان ذكريات، ليس فيها ما تركن إليه النفس أو يهدأ له بال، فهي حكاية سيرة معاناة في لحظة معاناة، حكاية وسرد معاناة الخروج من المكان، في لحظة ترقب لخروج من الزمان، إنها معاناة مثناة صلدة ترتكز على مسارات الوعورة والمكابدة، لكن فيها كثير من التحدي والمكابرة.

4 - السرد وجغرافية الترحال:

حياة إدوارد سعيد تتجاذبها شبكة طاغية من تعقيدات الحياة التي فرضتها ميكانيزمات سلطة المنفى واللااستقرار، وإن الوعي الراسخ بهواجس هذه التجارب في لحظة انجذاب محموم فرضته رغبة جامحة في التشبث بثوابت راسخة ضد نزاعات التشكيك والإبعاد، لهي الدافع لتسجيل المحكي تأكيدا لحضور الذات ووعيها رغم تباين المستويات الثقافية، فعدم الرغبة في هذا القهر والإبعاد عن المكان والأصل، واستبداله بجغرافية ترحالية متعددة التضاريس، لتحدوها رغبة في سرد وقائعها، فلا قيمة للترحال سواءا أكان طوعا أو كرها " إذا لم يتحول إلى سرد، إذا لم ينتقل إلى مستمعين أو قراء "[14]. وهذا هو الهدف الرئيس الذي دفع إدوارد سعيد إلى كتابة سيرته الذاتية.

فالمنفى من المقولات الأشد قهرا في فرض جغرافية الترحال، لكنها لا تتوقف عند هذا الحد بل تتعداه إلى البعد النفسي وماله من أثر عميق في شرخ الذات عن نفسها وعن العالم المحيط بها، وهو عالم غير قار ولا مستقر، لكنه لا يخلو من جاذبية في لحظة استذكار تؤول إلى سرد، هذه الحقيقة هي التي نقف عليها في (خارج المكان) لإدوارد سعيد، إذ يؤكد لنا في مقدمة مذكراته " أن الدافع الرئيسي لكتابة هذه المذكرات هو طبعا حاجتي إلى أن أجسر المسافة، في الزمان والمكان، بين حياتي اليوم وحياتي بالأمس، أرغب فقط في تسجيل ذلك بما هو واقع بديهي دون أن أعالجه أو أناقشه، علاوة على أن انكبابي على

مهمة إعادة تركيب زمن قديم وتجربة قديمة قد استدعى شيئا من البعاد ومن السخرية في الموقف والنبرة "[15].

نعم رغبة السرد طاغية، لكن المسرود بعيد في الزمان والمكان، فما لم تنله النفس يوما من استقرار في المكان على طول مشوار الزمان، فإن السرد كفيل باستجاع شتاته، واسترجاع ذكرياته، فجغرافية الترحال مركز الذكريات التي ترسمها جماليات السرد " من مغادرة ووصول ووداع ومنفى وشوق وحنين إلى الوطن وانتماء، ناهيك عن السفر ذاته. فكل واحد من الأمكنة التي عشت فيها –القدس والقاهرة ولبنان والولايات المتحدة – يملك شبكة كثيفة ومركبة من العناصر الجاذبة، شكلت جزءا عضويا من عملية نموي واكتسابي هوتي وتكوين وعيي لنفسي وللآخرين"[16].

هكذا أراد إدوارد سعيد تعريض الشعور العميق بالمنفى، وفق رؤية سردية ناضجة قدمها استنجادا برمزية لغوية سردية أخاذة معينها كثافة استذكار في مقاومة طائلة النسيان، فالكتابة بالنسبة إليه جدلية تتقاسمها معادلتي الاستذكار والنسيان، مع وعي عميق منه بأنه ينسج خيوط حلم واع تحدوه رغبة وحنين وشوق وتأصيل وانتماء، مع اقرار بالهوية ومقوماتها التاريخية.

5- الكتابة في متاهة اللغة:

جدلية اللغة والكتابة من أهم القضايا التي أخذت حظا وافرا من الدراسة والتمحيص على مستويات معرفية كثيرة، فباللغة تتأسس عملية فعل الكتابة، كما أن الكتابة هي شكل من أشكال التمظهر اللغوي. وأن هناك نظرية عن تشكل المتكلمين باللغة. ويزعم فلاهاوت أنّ " كل متكلم يصل إلى ذاتيته أو هويته من خلال ومن ضمن نظام من الأمكنة والمراتب التي تفوقه كثيرا، فليس هناك كلمة إلا وهي منطلقة من مكان، وليس هناك كلمة إلا وهي توضح هذا المكان للسامع، كما توضح له مكانه في المحاورة "[17].

هذه القضية بالضبط هي التي ترتكز عليها عملية كتابة مذكرات (خارج المكان) لإدوارد سعيد، فعلى المستوى الذاتي تتأسس عملية الكتابة على وقع الشعور بالغرابة في مستواها النفسي االعميق، وهو الشعور الاستنكاري لدلالة الوقع المستفز لاسم العلمية (إدوارد

سعيد)، فإن كان اسم العلم يؤسس لاكتمال الشخصية والتعبير عنها في التمظهر الخارجي ومزاوجته بالاستقرار النفسي، فإن دلالة اسم العلمية لدى إدوارد سعيد مثار ارتباك وغرابة وانفصام إذ يعبر عن هذه الحقيقة في بداية سرد مذكراته بقوله:"كان يلزمني قرابة الخمسين سنة لكي أعتاد على <إدوارد>، وأخفف من الحرج الذي يسببه لي هذا الاسم الانجليزي الأخرق الذي وضع كالنير على عاتق < سعيد>، ... وخلال سنوات من محاولاتي المزاوجة بين اسمي الانجليزي المفخم وشريكه العربي، كنت أتجاوز <إدوارد>، وأؤكد على < سعيد>، تبعا للظروف، وأحيانا أفعل العكس، أو كنت أعمد إلى لفظ الاسمين معا بسرعة فائقة بحيث يختلط على السامع. والأمر الوحيد الذي لم أكن أطيقه مع اضطراري إلى تحمله، هو ردود الفعل المتشككة والمدمرة التي كنت أتلقاها: إدوارد؟ سعيد؟"[18].

إن التسمية بالنسبة إليه واقع اضطراري متشابك في نسيج متناقض ينفي إمكانية التجاور، بل إنه يعزز من طبيعة التطور على المستوى الذاتي النفسي، فالغربة والمنفى الملازمة لإدوارد سعيد، ليست مقصورة على مستوى الحيز المكاني فقط، بل إنها أشد ما تكون لصيقة بذاتية نتيجة القهر المعلن على مستوى الدلالة العلمية للاسم، فالمسألة لا تكمن في التركيب الثنائي الضدي للاسمين فقط، بل هي أعمق من ذلك، فهي تتموقع على حافة الاختلاف الجذري بين ضرورة الانتماء واضطرارية المنفى.

وما يعزز هذه الفكرة إضافة إلى الطرح التنافري لاسم العلم، نجد قضية اللغة، التي ما فتئت توسع من بؤرة التوتر لدى إدوارد سعيد، فإن كان اسم العلم أرسى على ذاتيته انزواء وانغلاقا وتوترا، فإن إشكالية اللغة هي الأخرى زادت من حدة الانفصام بفعل الإنصهار والذوبان في ثقافة الآخر، فالفارق اللغوي في حالة إدوارد سعيد " يتخذ شكل توتر حاد غير محسوم بين عالمين مختلفين كليا بل متعاديين: العالم الذي تنتمي إليه عائلتي وتاريخي وبيئتي وذاتي الأولية الحميمة – وهي كلها عربية- من جهة، وعالم تربيتي الكولونيالي وأذواقي وحساسياتي المكتسبة ... لم يعفني هذا النزاع منه يوما واحدا، ولم أحظ بلحظة راحة واحدة من ضغط واحدة من هاتين اللغتين على الأخرى، ولا نعمت مرة بشعور من التناغم بين ماهيتي على صعيد أول وصيرورتي على صعيد آخر، وهكذا فالكتابة عندي

فعل استذكاري، وهي، إلى ذلك، فعل نسيان، أو هي عملية استبدال اللغة القديمة باللغة الجديدة"[19].

إن اللّغة في حد ذاتها لحظة من لحظات التبرم والانشطار بفعل التحول اللغوي من سياق ثقافي أصيل إلى سياق آخر مختلف، وحجب لغة بأخرى، وهذا ربما ما يؤكده قول الجاحظ " واللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها"[20]. لكنّ الضيم الذي يعاينه إدوارد سعيد أعمق من هذا الوصف لأنه محكوم بسلطة النفي، نفي المكان ونفي اللغة ونفي الذات، إنها ازدواجية في المعاناة شعور بالغربة في مقابل تناقض في الوصف والتعبير " فلا أنا تمكنت من السيطرة على حياتي العربية في اللغة الانجليزية، ولا أنا حققت كليا في العربية ما قد توصلت إلى تحقيقه في الانجليزية، هكذا طغى على كتاباتي كم من الانزياحات والتغايرات والضياع والتشوه"[21].

هذا هو حال الكتاب وهذا هو حال صاحبه إذ " تتخلق للمنفي جماليات سردية تؤكد تضافر المكان والزمان، وتواشج الجغرافيا والتاريخ، وتصل البشر بالأرض والأشياء والكائنات، ومن ثم فإن عالم المنفي يتجلى كاستعارة كبرى تتشرب دلالات معقدة، بالنظر إلى ما يتضمنه من لغة غريبة، وأماكن مختلفة، وذوات وآخرين متقلبين، مما يضع المنفيين في فضاء من < الصمت > هو بمثابة حيلة بالنسبة للمنفي عن وطنه أو لغته أو معتقده، لذا يمثل المنفى إلى حد كبير مرجعا مركزيا في < التمثيل الروائي > من حيث هو < إستراتيجية> تصوغ علامات خاصة بها وحدها، نصية وغير نصية، علامات تصل مقامات المنفيين بأحوالهم، وتصل من ثمة تجليات ثيمة النفي المختلفة بتقنيات نص المنفى، وطرائق التعبير عنه أسلوبيا "[22]. وإنه لأصدق وصف يمكن ان يوصف به كتاب خارج المكان لإدوارد سعيد، فإن الكتابة عن الذات في لحظة قرب الممات لهي اللحظة الحاسمة في تأكيد ضرورة رفع التجني الذي يطال الكاتب، إنها الكتابة الإسترجاعية في الزمان لتأصيل الانتماء للمكان. وبحق نستطيع أن نقول أن كتاب (خارج المكان) لإدوارد سعيد لهو النقطة الفاصلة في جميع كتاباته، لسببين اثنين، الأول كونه تعرية للذات الساردة في أدق التفاصيل التي قد لا يجرؤ أي كاتب لسيرته الذاتية أن يكون وصفه بهذه الجرأة، وهذا ما يعزز السبب الثاني

وهو أن الكتابة جاءت خلاصة جامعة ومؤصلة لجل أطروحاته مع فارق النوع و الجنس والموضوع تحدوها رغبة الإسراع في استرجاع المكان قبل فقد الزمان بحتمية الموت المتربص.

مراجـــع البحـــث

1- إدوارد سعيد. (تأملات حول المنفى)، تر: ثائر ديب، دار الآداب، بيروت، ط2، 2007.

2- شرف الدين ماجدولين. (الفتنة والآخر – أنساق الغيرية في السرد العربي-)، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2012.

3- إدوارد سعيد.(المثقف والسلطة)، تر: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006.

4- إدوارد سعيد. (خارج المكان)، تر: فواز طرابلسي، دار الآداب، بيروت، ط1، 2000.

5- كارلوس ليسكانو. (الكاتب والآخر)، تر: نهى أبو عرقوب، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، ط1، 2012 .

6- فخري صالح. (إدوارد سعيد، دراسة وترجمات)، منشورات الاختلاف، الجزائر،ط1، 2009.

7- شيلي واليا.(إدوارد سعيد وكتابة التاريخ). تر: أحمد خريس وناصر أبو الهيب، أزمنة للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2007.

8- إدوارد سعيد. (خيانة المثقفين)، تر: أسعد الحسين، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، سورية، دمشق، د.ط، 2011.

9- عبد الفتاح كيليطو.(لن تتكلم لغتي)،دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2002.

10-جان جاك لوسركل. (عنف اللغة)، تر: محمد بدوي، المركز الثقافي العربي، الحمراء، بيروت،ط1، 2005.

11-أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. (البيان والتبيين) تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دط، ج1،د.ت.

الهوامـــش و المراجـــع

1 - إدوارد سعيد. (تأملات حول المنفى)، تر: ثائر ديب، دار الآداب، بيروت، ط2، 2007، ص:117.

2 - شرف الدين ماجدولين. (الفتنة والآخر – أنساق الغيرية في السرد العربي-)، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2012، ص، 113.

3- إدوارد سعيد.(المثقف والسلطة)، تر: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006، ص94-95.

4- إدوارد سعيد. (خارج المكان)، تر: فواز طرابلسي، دار الآداب، بيروت، ط1، 2000، ص19.

5- إدوارد سعيد. (المثقف والسلطة)، ص:108.

6- كارلوس ليسكانو. (الكاتب والآخر)، تر: نهى أبو عرقوب، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، ط1، 2012،ص:7

7- فخري صالح. (إدوارد سعيد، دراسة وترجمات)، منشورات الاختلاف، الجزائر،ط1، 2009، ص:60-61.

8- شيلي واليا.(إدوارد سعيد وكتابة التاريخ). تر: أحمد خريس وناصر أبو الهيب، أزمنة للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2007، ص: 14.

9- إدوارد سعيد. (خيانة المثقفين)، تر: أسعد الحسين، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، سورية، دمشق، دط، 2011، ص:29-30.

10- إدوارد سعيد. (تأملات حول المنفى)، ص:117.

11- إدوارد سعيد. (خارج المكان)، ص: 19.

12- إدوارد سعيد.(المثقف والسلطة)،ص: 109-110.

13- إدوارد سعيد. (خارج المكان)،ص: 358.
14- عبد الفتاح كيليطو.(لن تتكلم لفني)،دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2002، ص:63.
15- إدوارد سعيد. (خارج المكان)، ص22.
16- إدوارد سعيد. (خارج المكان)، ص22.
17- جان جاك لوسركل. (عنف اللغة)، تر: محمد بدوي، المركز الثقافي العربي، الحمرا، بيروت،ط1، 2005، ص:431.
18- إدوارد سعيد. (خارج المكان)، ص:25.
19- إدوارد سعيد. (خارج المكان)، ص:08.
20- أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. (البيان والتبيين) تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دط، ج1، ص:368.
21- إدوارد سعيد. (خارج المكان)، ص:08.
22- شرف الدين ماجدولين. (الفتنة والآخر)، ص:107-108.